

المحاضرة السادسة: الاتجاه الانتشاري، الاتجاه السلوكي

1. اتجاه الانتشار الثقافي (Diffusionism)

يؤكد هذا الاتجاه على انتشار الممارسات والأفكار الثقافية كوسيلة للتنمية. يسلط هذا الاتجاه الضوء على أهمية السياق الثقافي في تشكيل عمليات التنمية، معارضاً اتجاه التحديث الموحد.

1.1. الخلفيات والمؤثرات الفكرية:

هذا الاتجاه، الذي له جذور في الأنثروبولوجيا، يتقاطع مع نظرية التحديث، ولكنه يركز بشكل خاص على آلية الانتقال الثقافي. نشأ هذا الاتجاه في الأنثروبولوجيا كرد فعل على التطورية الكلاسيكية، وركز على كيفية انتقال السمات الثقافية من مجتمع إلى آخر عبر الاتصال والهجرة. رواد هذا الاتجاه هم مجموعة من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماعيين الأوروبيين من بريطانيا وألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فريدريك راتزل في ألمانيا وفرانز بواس في أمريكا.

2.1. المنظور النظري نحو التنمية والتخلف:

نشأ هذا الاتجاه في ظل الاهتمام بدور الثقافة في التنمية، وركز على انتقال الأفكار والتقنيات من المجتمعات المتقدمة إلى المتخلفة عبر "الانتشار" (Zidana, 2023; Webster, 1984) يرى هذا الاتجاه أن الثقافات لا تتطور بمعزل عن بعضها البعض، بل تنتقل العناصر الثقافية (كالمعارف والاختراعات والمؤسسات) من مجتمع لآخر عن طريق الانتشار والاتصال الثقافيين وليس بالضرورة عن طريق التطور الداخلي وحده.

يجادل الاتجاه الانتشاري أن التنمية يمكن تحقيقها من خلال انتقال وانتشار عناصر التقدم (مثل التكنولوجيا، الأفكار، السلع، القيم الحديثة) من الدول المتقدمة (المراكز) إلى الدول النامية (الأطراف). "حيث انطلق من نقطة أساسية هي أن التنمية شكل من أشكال التغيير الاجتماعي، تتم بواسطة الانتشار الثقافي من المركز". (قيرة وغربي، 2017، ص 15) يفترض هذا الاتجاه أن عملية الانتشار الثقافي (Cultural Diffusion) تحدث بشكل تدريجي، حيث تنتقل العناصر أولاً من عواصم الدول المتقدمة إلى عواصم الدول النامية، ثم تنتشر منها إلى باقي أقاليم الدولة.

بشكل عام اهتم هذا الاتجاه برصد وتتبع كيف تنتقل الابتكارات العلمية والتكنولوجية عبر الحدود. معرفة دور المؤسسات الوسيطة (الإعلام، التعليم، المساعدات) في نشر التغيير. واستكشاف العلاقة بين التغيير الثقافي والتنمية الاقتصادية.

3.1. كيف تتحقق التنمية وفق هذا الاتجاه؟

- تتحقق التنمية وفقاً لاتجاه الانتشار الثقافي عبر نقل الابتكارات والقيم والمؤسسات من المركز إلى الأطراف.
- التنمية تحدث بفضل انتقال الأفكار والابتكارات والقيم من المجتمعات المتقدمة إلى المتخلفة.
- يفهم التخلف كنتيجة لعزلة ثقافية أو بطء في تقبل الابتكارات. وحل هذه المشكلة "يكن في عملية الانتشار ذاتها، بمعنى انتشار الخصائص النموذجية المثالية من المركز نحو الأطراف، أي حجم مقومات التقدم "المنقولة" من البلدان المتقدمة (المعرفة العلمية بنوعها الصريحة والضمنية، رأس المال، القيم الغربية، المهارات المختلفة، وما إلى ذلك) ". (قيرة وغربي، 2017، ص ص 15-16)

4.1. أهم الانتقادات:

- نظرة ميكانيكية: غالباً ما يقدم هذا الاتجاه صورة آلية ومبسطة لعملية الانتقال الثقافي، متجاهلاً أن العناصر المنتشرة يتم تعديلها وتكييفها وإعادة تفسيرها في سياقها الجديد.
- إهمال علاقات القوة: لا يعطي هذا الاتجاه اهتماماً كافياً لعلاقات القوة والهيمنة التي تحكم عملية الانتشار، حيث لا يكون الانتقال دائماً طوعياً أو محايداً. فالانتشار ليس عملية اقتصادية-سياسية حيادية، وإنما ينطوي على علاقات سيطرة واستغلال المركز للأطراف". (قيرة وغربي، 2017، ص 16)
- التركيز على العرض دون الطلب: يركز على عملية "إرسال" الابتكارات من المركز، ويفترض ضمناً وجود حاجة لها في الأطراف، دون تحليل كافٍ للسياق المحلي.
- إهمال السياق المحلي وخصوصية المجتمعات، والميل إلى تبرير التبعية للمركز، وتجاهل البنى الاقتصادية والسياسية للعلاقات غير المتكافئة التي تنجم عنها.
- اختزال التنمية في مجرد نقل تقنيات أو قيم دون مراعاة البنية الاجتماعية، حيث اعتبر هذا الاتجاه ذو نزعة تبسيطية ترى التنمية مجرد استيراد للابتكارات. (Zidana, 2023; Webster, 1984)

2. الاتجاه السلوكي

تركز النظريات السلوكية على الأفعال الفردية والجماعية التي تحفز التغيير الاجتماعي. وتؤكد هذه النظريات على دور الفاعلية في التنمية، متحذية بذلك الرؤى الحتمية. في حين تقم هذه النظريات أطراً قيمة، إلا أنها

تواجه انتقاداتٍ لقصورها والحاجة إلى مناهج تنمية أكثر دقة ومراعية للسياق. وهذا يسلط الضوء على النقاش الدائر في علم الاجتماع حول أفضل السبل لتحقيق تنمية مستدامة وعادلة.

1.2. الخلفيات والسياق

ظهر الاتجاه السلوكي في العلوم الاجتماعية في منتصف القرن العشرين، متأثرًا بعلم النفس والسلوك الإنساني، وركز على دراسة أنماط السلوك الفردي والجماعي وعلاقتها بالتنمية. (Zidana, 2023) جاء في إطار محاولات لفهم التنمية السياسية والاجتماعية من خلال دراسة أنماط السلوك الفردي والجماعي. يركز هذا الاتجاه على العوامل النفسية والسلوكية للأفراد كمتغيرات حاسمة في تفسير التنمية والتخلف.

برز هذا الاتجاه في السبعينيات والثمانينيات كرد فعل على إخفاق نظريات النمو الاقتصادي في تحقيق تحسن ملموس في مستويات معيشة الغالبية العظمى من السكان. تقارير البنك الدولي التي أشارت إلى أن "النمو" لم يحل مشكلة الفقر. صعود مقاربات تنمية تركز على الإنسان كغاية وليس وسيلة.

تأثر هذا الاتجاه بعلم النفس السلوكي (Behaviorism) الذي يؤكد على أن السلوك هو استجابة لمثيرات بيئية ويمكن ملاحظته وقياسه. كما استلهم من أعمال علماء النفس الذين ربطوا بين سمات الشخصية والأداء الاقتصادي.

باريك أوداي: المدرسة الديناميكية النفسية، ديفيد ماكلياند، ونظريته الحاجة إلى الإنجاز N-ach.

2.2. المنظور النظري نحو التنمية والتخلف:

- التنمية ترتبط بتغيير أنماط السلوك (Attitudes, Values, Orientations). بمعنى أن التنمية ترتبط بتغيير السلوكيات والقيم والمواقف لدى الأفراد والجماعات. وعليه، ركز هذا الاتجاه -المتأثر بالاتجاه البنائي الوظيفي- على أن "التنمية مقرونة بتغيير التوجهات العملية لأفراد المجتمع فيما يخص القيم والسلوك والحوافز". (قيرة وغربي، 2017، ص 17)

عموما اهتم هذا الاتجاه بالقضايا التالية في فهم وتفسير التنمية كموضوع سيكولوجي-سلوكي:

- كيف تؤثر القيم والسلوكيات في التنمية؟

- دور التعليم والإعلام في تغيير السلوك التنموي، مثل غرس قيم الإنجاز والابتكار.

- تصميم سياسات تنموية تأخذ في الاعتبار التحيزات السلوكية للأفراد ("الدفعات" - Nudges).

- الحاجة إلى الإنجاز (Need for Achievement - n-Ach): مفهوم طورته ديفيد ماكلياند (David McClelland)، ويشير إلى دافع نفسي قوي لدى الأفراد للتفوق وبلوغ معايير الامتياز. يرى ماكلياند أن "المجتمعات ذات المستوى العالي من "الحاجة للإنجاز" تميل إلى تحقيق نمو اقتصادي أسرع، يقوده مجموعة من المقاولين لديهم حاجة قوية نحو الإنجاز، ولديهم رؤية وميول نحو المخاطرة وروح المبادرة". (McClelland, 1986, p219) وعليه، فالتنمية مقترنة بوجود دافعية فردية قوية نحو الإنجاز.

بناءً على هذا الاتجاه ظهر حقل معرفي جديد في الاقتصاد يطلق بـ "الاقتصاد السلوكي". يرى هذا الحقل أن العاطفة، التحيزات المعرفية، والسياق الاجتماعي تؤثر جميعها بقوة في توجيه خيارات الناس، وفي كيفية اتخاذ الناس لقراراتهم الاقتصادية.

- التخلف كمشكلة سلوكية-إنسانية: التخلف ليس مجرد انخفاض في الدخل القومي، بل هو حرمان (Deprivation) من القدرات الأساسية كالصحة، التعليم، المشاركة. وهو مرتبط بغياب "الوكالة" (Agency) لدى الأفراد.

التخلف هنا، سببه غلبة أنماط السلوك التقليدية التي تعيق الترشيح والعقلنة. يفسر هذا الاتجاه "التخلف" على أنه نتيجة لغياب الدوافع والقيم والمواقف النفسية اللازمة لريادة الأعمال والابتكار والنمو الاقتصادي لدى أفراد المجتمع. وبالمقابل، فإن التنمية هي نتاج انتشار خصائص سيكولوجية معينة، مثل الدافعية للإنجاز، والتي تحفز الأفراد على السلوكيات المنتجة اقتصادياً. يرى هذا الاتجاه أن الأفكار والقوى النفسية هي التي تشكل التاريخ، وليس العوامل المادية وحدها.

3.2. أهم الانتقادات:

- الاختزال النفسي: ينتقد هذا الاتجاه لإرجاعه ظواهر معقدة مثل التنمية والتخلف إلى عوامل نفسية فردية، متجاهلاً بذلك العوامل البنوية والاقتصادية والسياسية والتاريخية الأوسع. بمعنى المبالغة في التركيز على الفرد وإهمال البنى الاجتماعية والاقتصادية.

- صعوبة القياس والتعميم: من الصعب قياس مفاهيم مثل "الحاجة للإنجاز" بشكل دقيق على مستوى مجتمع بأكمله، كما أن العلاقة السببية بينها وبين النمو الاقتصادي ليست واضحة دائماً.

- "لوم الضحية": قد يفهم من هذا الاتجاه أنه يلقي باللوم على أفراد المجتمعات النامية لامتلاكهم "عقليات خاطئة"، بدلاً من تحليل الظروف الهيكلية التي تقيد خياراتهم.

تمثل هذه النظريات تطوراً في الفكر التنموي، من النموذج الخطي المبسط (التحديث) الذي ركز على المحاكاة الغربية، إلى النموذج الآلي (الانتشار) الذي راهن على نقل التكنولوجيا، وصولاً إلى النموذج الإنساني (السلوكي) الذي جعل الإنسان في مركز العملية التنموية. رغم تباينها، إلا أنها جميعاً تشترك في محاولة الإجابة عن السؤال المركزي: كيف يمكن للدول المتخلفة أن تلحق بركب التقدم؟ وإلى أي نموذج يجب أن تحتذي؟

اعداد د. فتيش وسيم